

ماذا فعلنا ببلادنا؟*

من شهور عرضوا علينا هنا رواية «هايدي» فى مسلسل تليفزيونى قدموه على حلقات بعد الظهر، وهايدي من أمتع القصص التى يقرؤها الانسان فى اللغة الألمانية ومؤلفتها يوهانا شبرى سويسرية وبطلة القصة طفلة هى هايدي أو أولهايد ولكن الرواية ليست من روايات الأطفال إنها رواية كل إنسان، والأطفال يستمتعون بها كما يستمتع بها الكبار، وأنا قرأتها وأنا أتعلم اللغة الألمانية لأنها من تلك القصص الانسانية الجميلة التى تغزو القلب ببساطتها وعمقها غير المتكلف، وأذكر أننى كنت أقرؤها فى مكتبة سمينار قسم اللغة الانجليزية بجامعة زيوريخ. وكانوا قد انتخبونى سكرتير جمعية قسم اللغة الانجليزية لامتيازى على غيرى بل لأننى كنت الطالب الوحيد الذى لم تكن له عائلة فى زيوريخ، فكانت أستطيع أن أقضى فى المكتبة اليوم كله. فلا أتغيب إلا لحضور الدروس.

فكان رواد المكتبة يجدوننى فى كل وقت من التاسعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر وكانت مكتبة متوسطة الحجم دافئة هادئة وأحياناً كانت تمر ساعات دون أن يأتى طالب واحد أو طالبة.

وكنت يومياً أقرأ رواية هايدي بعد الظهر عندما دخلت طالبة لطيفة جداً وطلبت إحدى روايات توماس هاردى فأتيتها بها ثم لاحظت أننى أقرأ هايدي فأشرق وجهها وقالت: تلك هى روايتى المفضلة وأنا صغيرة كنت أقرأها لجدتى وتعطينى قرشاً فى كل مرة قلت.

— أنا مستعد أن أدفع القرش (وهو فى السويسرية رابن - بكسر الباء الثقيلة وتشديدها، وهو جزء على مائة من الفرنك). قالت:

* نشرت هذه المقالة فى ديسمبر ١٩٨٧ م.

- إذن تأتي معى إلى البيت الآن. أن والدتى تنتظرنى وربما قدمنا إليك الشاى والبسكويت دع الرواية هنا فهى عندى فى البيت.

وأغلقت المكتبة فقد تخطت الساعة الثالثة ومضيت معها فى الطريق، نظرت إلى بعينين زرقاوين وقالت:

قل لى ما هو الفرق الأساسى بين مصر وسويسرا فى نظرك؟

قلت: سأذكر لك فرقين أساسيين الأول أنكم ناس منظمون جدا والناس لا يحبون هذا النظام الدقيق جدا.

قالت: لايهم.. أنا أيضا لا أحب هذا النظام اندقيق.. إن الحياة تفقد معه طعمها.. ثم قالت والفرق الثانى؟

- الفرق الثانى هو هذا الذى نحن فيه: فمن المستحيل فى مصر أن تدعو فتاة مثلك رجلا مثلى إلى بيتها لتقرأ له كتابا..

- لماذا؟

- لأنهم يخافون على المرأة من الرجل! إنهم يعتقدون أن الرجل والمرأة إذا اجتمعا فلا يمكن أن يكون للقراءة فقط.

- لا أفهم.

- بل تفهمين يا.. ما اسمك؟

- كارلا.. كيف لا تعرف اسمى وأنا آتية فى المكتبة كل يوم.. اسمى كارلا شترودل.

إن الناس عندنا يقولون إن الرجل والمرأة إذا اجتمعا فلا بد أن يكون الشيطان ثالثهما.

- وماذا يفعل الشيطان هنا؟؟

- أنا شخصا لا أدرى ولكن الناس عندنا يخافون على نساءهم من الشيطان..

- وأنت؟

- أنا أعتقد أن الشيطان هو الانسان نفسه.. الإنسان بحسب ما يريد..
وأنا شخصيا لم أشعر قط بالرغبة فى أن أكون شيطانا مع بنت مثلك
لا يمكن أن يكون الانسان معها الا ملاكا..

فسكنت لحظات ثم عادت تقول: عندنا أيضا رجال مثل الذين عندكم.
ولكنهم لا يخافون على المرأة بل يطمعون فيها.

وفى بيتهم الجميل استقبلتنا الام دون ارتياح أول الأمر ولكنها اضطرت
إلى المجاملة وقالت كارلا:

سأقرأ له فى هايدى هل نستطيع أن نشرب الشاى؟ وهل عندنا
بسكويت؟

- الشاى تعملينه أنت وليس عندنا بسكويت.

وأحسست بالبرد يسرى فى جسدى ونهضت كارلا لتأتى بالكتاب
وعادت به وجعلت تقرأ كان صوتها جميلا جدا ونغماتها حلوة، وكنا فى
الجزء الثانى من الرواية عندما عادت هايدى من فرانكفورت إلى باد
راجاتس فى قلب جبال الألب وصعدت الجبل إلى قرية شفندي ومنها إلى
بيت جدها وسط الثلوج، ويبدو أن أم كارلا استحت من سوء مقابلتى لأنها
أتتنا بالشاى وتلطفت معى وبعد قليل أتتنا بقطعتين من الكيك وقالت
كارلا لأمها:

- أتعرفين يا أمى.. أنهم فى مصر يخشون على النساء من الرجال؟

- عندهم حق.. الرجال ملاعيين.

- والنساء؟.

- ملعونات أيضاً والحرص واجب.. وفي قرية صغيرة غير بعيدة عن زيوريخ اعتدى مدرس على تلميذته والتلميذة حملت والحكاية كانت في الصحف.

وعدنا إلى القراءة وبعد نحو عشر دقائق قلت:

يكفى هذا اليوم يا كارلا.

وقالت الأم: هذا أحسن.. الساعة الآن بعد الخامسة وبعد قليل يأتي أبوك ولا يسره أن يجد هذا الشاب هنا..

ونهضت وسلمت على الأم واتجهت إلى الباب ورافقتني كارلا إلى الباب وقالت:

- لا عليك من أمي.. أنها تخاف على أبي يخاف عليها وعلى.

- امك على حق وكذلك أبوك، أنت جميلة وأمك جميلة والحذر واجب.. غدا أعطيك خمسة قروش لا قرشاً واحداً..

- بعد أن سمعنا بدنك؟

- خذي بالك من نفسك يا كارلا أمك على حق وأمثال المدرس الذي ذكرته أمك كثيرون وأنت بنت حلوة ومثلك ينبغي أن تحذر الشيطان.

- تقصد أنني لا أستطيع الاطمئنان إليك؟

- لا إلى ولا إلى غيري.

- وهل أنا حلوة حقاً؟

- حلوة جداً.. والآن لا بد أن أسرع بالذهاب، أبوك لا بد على وشك المجئ.

ومضيت وأنا أفكر هل نحن على حق؟ هل بالفعل إذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما ربما ولكن الحياة تكون مريرة جداً إذا استحال

على رجال مثلى أن يجلس إلى بنت فى بيتها وأمها هناك ليقرا كتابا هذا يجعل حياتنا فى مصر مظلمة وحزينة. حقا أن الحذر واجب ولكن الحذر أكثر من الواجب عذاب، البرقع والملاية سخر فهما فعلا لن يحولا دون أى شر اذا أرادت المرأة وما أكثر ما تريد. والمشرية ظلم والمرأة الحبيسة تقع فى الخطيئة بفكرها خلف المشرية، وأذكر أننا روغنا ذات ليلة عندما وجدنا طفلا حديث الولادة إلى جانب الحائط قرب البيت، كلنا عرفنا فيما بعد أن هذا الطفل أنجبته خادمة من الابن الأكبر للأسرة وهذا الطفل تبنته أخت الشاب وكانت لا تنجب أما الخادمة فقد اختفت، يقولون إن الأسرة قتلتها خنقوها، وأبوها رفض أن يتسلم الجثة وضابط الشرطة رأى بنصيحة رؤسائه أن يحفظ القضية كلها صيانة للأسرة.

على العشاء وكنت وحدى فى بطعم صغير عدت إلى التفكير فى قصة هايدى، إنها طفلة يتيمة من أهل قرية صغيرة جدا حوالى ستين نسمة من قرية شغندى فوق باد راجاتس، إنها يتيمة مات أبوها وأمها ولكنك لا تشعر قط أنها يتيمة، هنا فى ذلك المجتمع السويسرى فى قلب جبال الألب تتبنى الجماعة كلها مثل هذه الطفلة لفظ اليتيم «فايزن كيند» أو فائرة لا يجنى مرة واحدة فى القصة إنها جماعة سلمية جدا تعيش فى اعلى الجبال بين الثلوج، إنهم فى غاية النظافة والطهارة وحياتهم فقيرة ولكنك لا تشعر أنهم فقراء إنهم قنوعون بما لديهم ولا وجود للجشع عندهم، أولادهم يتعلمون فى المدارس والصالحون منهم للتعليم الثانوى أو العالى يهبطون إلى بلدة كور عاصمة الجراونيدن عندما يتقدمون إلى المدرسة يذكرون حالتهم المالية بكل صراحة والمصاريف تقدر بحسب كلامهم هنا لا فرق بين التعليم الحرفى والتعليم الثانوى والجامعة ليست الأمل الأكبر لكل الناس، لن الحرفى مثل النجار والميكانيكى والسيك يكسب قدر ما يكسبه الطبيب أو المهندس. كل إنسان يأخذ حقه لأن كل إنسان يتقن عمله. الميكانيكى يمر فى أكثر من عشرة امتحانات حتى يؤذن له فى أن

يعمل فى جراج محترم أو يفتح جراجا هنا يكون قد وصل إلى مستوى المهندس فعلا عقليا وحرفيا وماليا، ولكنهم لا يلقبونه بالمهندس أو الباشمهندس لأن ذلك لا يعنى شيئا لا أحد هنا يعرف الفقر أو لا يرضى به. جامع الزبالة هنا ليس انسانا جاهلا أو قذرا أو أميا. إنه يتقاضى اليوم ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ فرنك فى الشهر ويلبس القفاز ولا يعس القمامة بيده وهو يدير ماكينة «الفرم» فى حافلة الزبالة وكل شىء يتم بهدوء ونظام ودون ضوضاء، وجامع الزبالة ليس فقيرا أنه يسكن شقة محترمة وامرأته سيدة محترمة وأولاده فى المدرسة.

نحن فى بلادنا نهب مال اليتيم رغم أن القرآن أوصى به مرة بعد أخرى ونبينا الكريم صلى الله عليه وسلم كان يتيما ولكنه لم يشعر طوال طفولته أو صبوته أنه فقير. تبنته أسرته وتولاه جده دون تكلف لأن العرب لم يعرفوا إلى ذلك الحين الفقر أو الظلم أو النهب.

ولكننا عرفنا ذلك بعد الإسلام، لأن نظم الحكم التى عرفناها علمتنا الظلم والقسوة والسرقة، لأن الحاكم الأعلى كان ظالما وقاسيا ولصا، والمصيبة عندنا تاتى دائما من أعلى وعندما يكون السلطان لصا تنقل السرقة على السلم كله. والوصى على أموال الايتام يشتري الوصاية من السلطان وينهب مال اليتيم أو ينهب باسم اليتيم وأبو المحاسن فى النجوم الزاهر وابن إياس فى بدائع الزهور يعطياننا مثات الأمثلة من اللصوص الأوصياء على الأيتام رغم ضخامة العمامة، وأنا شخصا عملت مدرسا لأولاد سيدة كانت تسرق مال أولادها. الدرس أتعابه فى الشهر ثلاثة جنيها، ولكنها أرادتنى أن أوقع على إيصال بخمسة جنيها، وكانت تقول: ألم تأخذ نقودك؟ إذن فوقع! هذه الايصالات للمجلس الحسبى! لم ادرس هناك الا ذلك الشهر. عرفت بعد ذلك أن زوج هذه السيدة كان يضربها من هنا تعلمت السرقة والظلم وهى تسرق أموال أولادها دون أن تشعر.

فى قرية شفيندى لا يعرفون ذلك لأن الحكومة فى برن ليست حكومة لصوص. إنهم ناس أشراف يحترمون الشعب والأخلاق. وهابدى لها جد يعيش وحده بعيدا فوق القرية. إنه رجل ممرور من الحياة ولهذا فهو يعيش وحده فى كوخ على بعد كيلو متر من القرية. هايدى هى أجمل شىء فى حياته.. إنه يحبها والبنت الصغيرة تحبه ولا تريد فراقه.

ولكن أهل القرية لا يحبون هذا الرجل لأنه انسان منعزل. يقولون أنه فى شبابه أيام كان يعيش فى الدنيا مع الناس ويكافح فى سبيل العيش يقولون إنه قتل رجلا، ولم تثبت عليه التهمة نبرأوه. هذا فى رأى أهل القرية سبب اعتزاله للدنيا ولكن هذا الرجل رجل طيب جدا. ولكن هذه الطيبة لا تمنع من القتل، لأن الذين يقتلون ليسوا غير الطيبين فقط لأن القتل - بالنسبة لأى انسان عمل غير عادى - يتم فى ظروف يكون الانسان فيها خارج نفسه، خارج انسانيته. والقتل يتم فى الغالب فى لحظة غيظ وهو يتم فى لحظة والقاتل نفسه لا يدري فى معظم الأحوال كيف قتل هذا لا ينطبق طبعا على حالات التدبير والتربص لأسباب يعرفها القاتل جيدا مسألة القتل للثأر أو للانتقام للشرف أو للاستيلاء على الأموال هذه حالات تخرج عما نحن فيه لأننا نتكلم عن القتل الذى يقوم به رجل طيب أو غير طيب.. فى ظروف يخرج فيها عن سيطرة نفسه. بعد القتل مباشرة يبدأ الندم. وقد يكون جد هايدى قد قتل كما يزعم الناس، ولكنه على أى حال يكفر عن جريمته بهذه العزلة التى يعيش فيها فى أعلى الجبل فى منطقة يدوم الشتاء والثلوج فيها عشرة شهور فى العام. لا يمكن أن يكون هناك سجن أقسى من هذا.

هذا الرجل يعمل بيديه كل شىء لنفسه.. إنه نجار وحداد وخباز وصانع جبن.. وكل شىء يعمل به باتقان بعض الأشياء يصنعها ليبيعهها ليشتري بثمنها الأشياء القليلة التى يحتاج إليها ولا يستطيع إنتاجها مثل الدقيق. فهنا لا ينبت القمح، والرجل يشتريه من القرية ويخبره هنا.

هايدى سعيدة جدا مع هذا الجد. إنه يعمل لها كل شىء وخاصة الطعام الذى يصنعه بنفسه اللحم هنا لحم خنزير، فهذا الرجل يشتري خنزيرا واحدا فى العام ويقطع لحمه شرائح ويحفظها فى الثلج إنه لحم مدخن. عند هذا الجد اعزاز كثيرة يرهاها له ابن أخت له فقير يسميه بيتر. هذا الولد لطيف جدا وقوى جدا، والجد لا يستطيع أن يذبح عنزة واحدة لأنها اشبه بأفراد عائلته وهو يحبها إنها عنزات جميلة وسمينة لأنها تعيش فى منطقة باردة لا تدخلها الأمراض، والعنزة الواحدة تعطى لترين من اللبن فى اليوم. إنها أعزاز أليفة جدا لا تشبه فى شىء أعزازنا الهزيلة التى تشقى النهار كله لكى تملأ ربع بطنها بطعام لا يسمن.

أنا شخصا عرفت هذه القرية عندما زرت مدينة كور لأحضر برنامجا فى اللغة الألمانية سعدت إلى شفيندى وماقوقها من بلاد الجبل لا بد أن تكون إنسانا من حديد لتعيش هناك كنت هناك فى شهر أغسطس ودرجة الحرارة لم تزد على ست درجات. هذا يسمونه جوا حارا والأولاد يسيرون حفاة. أما أنا فقد كنت أرتعد ولكنى شعرت أن دمي كله يتجدد ولم أحس فى حياتي بصحة عيني كما أحسست فى ذلك اليوم.

ولكن أهل القرية غير سعداء لأن هايدى مع جدها لا تذهب إلى المدرسة. القانون هناك يحتم دخول الأولاد المدرسة والناس هنا ينفذون القانون. الجد غير مرتاح لفكرة المدرسة لأن هايدى اذا دخلت المدرسة كان عليه أن يهبط إلى القرية لتكون البنت إلى جوار مدرستها.

ولكن خالة لهايدى تعثر على حل لسألة تعليم هايدى. فقد عرفت أن أسرة المانية عنية فى فرانكفورت تبحث عن رفيقة لابنتها الطفلة كلارا التى تعيش على كرسى بعجلات فقد أصيبت بشلل الأطفال، اتصلت بالأسرة والأسرة قبلت هايدى والخالة سعدت وأخذت البنت على رغمها. لم يقاوم الجد لأن هايدى فعلا لا بد أن تتعلم ولكن قلبه اعتصر اعتصارا وهو يرى البنت تمشى مع خالتها، لقد تعلق بهذه البنت وأصبح يعيش

لها. الآن لم يعد لحياته هدف. تحمل الرجل الصدمة وطلب إلى هايدى أن تكتب له عندما تتعلم الكتابة، لا أحد هنا يبكى للفراق لأن الحزن الحقيقي لا يعرف الدموع ونحن نبكى ليل نهار لنغسل أحزاننا فنحن لا نحتمل الاحزان.

فى فرانكفورت لا تجد هايدى عند عائلة الرجل الموسر استقبالا حارا لأنهم رأوا فيها قروية حافية لا تحسن الأكل على المائدة ولا تحسن استعمال الشوكة والسكين وأسوأ من ذلك أنها لا تقرأ ولا تكتب أكثر الناس تطورا منها كانت الآنسة دوتماير ربة البيت ومربية كالارا إنها تنفر من هايدى ولا تريدها فى البيت.

ولكن كالارا أحببت هايدى وأنست إليها وأصبحتا ل تفترقان . وهايدى تعلمت القراءة والكتابة على يدى مدرس كالارا ولأن كالارا أحببت هايدى فقد أحبها أبوها وهو رجل ممتاز حقا وقد وجد هايدى شيئا طريفا وقد عطف عليها عطفًا كبيرًا ورجا الفراولاين دوتماير أن تحسن معاملتها وكل من فى البيت أحب هايدى .

ولكن صحة هايدى اعتلت. جو المدينة لم يناسبها وهى ابنة الجبل التى اعتادت الهواء الصافى والثلوج الطاهرة والطعام القليل. إن معدتها لا تحتمل ثلاث وجبات فى اليوم. وطال مرض هايدى وخاف عليها والد كالارا والطبيب نصح بعودتها إلى جدها فإن صحتها فى حياة الجبل فى الثلوج فى الطعام القليل فى الجرى واللعب فى الثلج مع بيتر ومع الاعزاز. وتعود هايدى إلى الجبل بأمر والد كالارا فى الصيف تذهب كالارا إلى هايدى على الجبل وتنام معها فى الفراش الخشن فى بيت الجد.

بعد شهر تشعر كالارا بأن رجلها أحسن لقد بدأ هواء الجبل يشفيها كما شفى هايدى كالارا تقف الآن على قدميها وهايدى تعلمها المشى إنها تمشى الآن ببطه ولكنها تمشى والولد بيتر الذى كان يغار منها لن هايدى

تحبها أكثر مما تحبه يلقي بكرسيها ذى العجلات من أعلى الجبل.
الطبيب يأتي الآن ويكشف على كلارا ويقول إنها لم تعد تحتاج إلى كرسي
في أواخر الصيف تعود كلارا إلى فرانكفورت وقد شفيت والطبيب أحب
هايدي كان قد فقد ابنة له وهايدي الآن تحتل مكانها، ويتحدث إلى
جدها ويقول له أنه يريد أن يتنباها ويكتب لها كل أملاكه هنا يرتاح قلب
الجد فقد اطمأن على مصير هايدي هذا الرجل كان مريضا بقلبه ولكن حب
هايدي وخوفه عليها أمسكه في الحياة.

قصة جميلة كلها إنسانية أجمل ما فيها أنك تعيش فيها مع ناس
أحرار ناس يعرفون واجبهم ويحترم بعضهم بعضا إنهم لا يظلمون لأن
أحدا لا يظلمهم والحكومة في سويسرا هي الناس، لهذا تجد سويسرا
أرقى دول العالم، عندما تذكر أننا منذ وعينا لم نعرف إلا حكومات ظالمة
تفهم لماذا نحن ظالمون، نحن نظلم أنفسنا وغيرنا، لأننا عشنا في ظلم وكل
ما نعانيه إنما هو من صنع أيدينا نحن يسرق بعضنا بعضا لأن احساسنا
ببشاعة السرقة مات من زمن إن كان لك ابن فأرجو أن تربيته علي العدل.
العدالة أساس كل سعادة لا تنس ذلك. لا تنس أن أول درس علمناه إياه
رسولنا هو العدل وهو نفسه كان مثالا للعدل.